تحت الرعاية السامية لمعالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي

SOUS LE HAUT PATRONAGE DE MONSIEUR, LE MINISTRE DE L' ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

الجـامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية - أدرار

L'UNIVERSITE COLONEl AHMED DRAYA-ADRAR

تنظـــــــم

ORGANISE

الملتقى الدولي الحادي عشر

Onziéme Colloque International

التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة

Le Soufisme en Islam et Les défis contemporains

أيام: ٩-١٠-١١ نوفمبر ٢٠٠٨

المحور الخامس:

التصوف والقضايا المعاصرة

العلاقة بين أهل التصوف وغيرهم

السيد محمد علاء الدين ماضى أبى العزائم
شيخ الطريقة العزمية
وعضو المجلس الأعلى للطرق الصوفية
وعضو القيادة الشعبية الإسلامية العالمية

الحمد لله رب العالمين، لم يُخْفِ عنَّا شيئًا من دينه، ولم يتركْ شيئًا رضِيَه أو كرِهَه إلا وجعل له عَلَمًا بَادِيًا، وآيةً محكمةً تزجرُ عنه أو تدعو إليه.. قد كفاكم مؤونة دنياكم، وحثَّكم على الشُّكر، وافترض من ألسنتكم الذكر، وأوصاكم بالتقوى، وجعلها منتهى رضاه من خلقه، واعملوا أنه من يتقِّ الله يجعلْ له مخرجًا من الفتن، ونورًا من الظُّلم، وَيُخَلِّدْهُ فيما اشتهت نفسه، وَيُنْزِلْهُ منزل الكرامة عنده، فى دارٍ اصطنعها لنفسه، ظلُّها عرشه، ونورُها بهجته، وزوَّراها ملائكته، ورفقاؤها رسله.. فبادروا الْمَعَادَ، وسابقوا الآجالَ، فإن الناس يُوشِكُ أن ينقطع بهم الأمل، وَيَرْهَقَهُمُ الأجلُ، وَيُسَدَّ عنهم باب التوبة.

والصلاة والسلام على مُمِدِّ لطائفِ القلوب بأسرار الغيوب، ومشرق الفتاح للأرواح، وسور الحفظ للأشباح، مدينة مجلى ذاتك الأحدية، وروض تجلى معانى أسمائك وصفاتك الربانية.. سيدنا ومولانا محمد.

اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وآله، صلاةً تُشْهِدُ بها أرواحَنَا مكانته الأحمدية، وسرَّنا أنوارَه المحمدية، وبصائرَنا مقامَ رسالته، وأبصارَنا ظلَّ هيكله، حتى تطمئن القلوب بحق اتباعه ρ وآله، وتنشرح الصدور بفهم أحواله ρ وآله، وجمِّلنا يا إلهنا بحقيقة الاتباع لهديه ρ وآله، والتمسك بسنته ρ وآله.. وأعذنا يا إلهنا من البدعة المضلة التى تخرجنا عن أن نكون مسلمين، وعن الهوى القاطع الذى يخرجنا عن حظائر مشاهداته، وعن الحظ الحاجب لنا عن شهود أنواره.. آمين يا رب العالمين.

وبعد:

هذه ورقة أتقدم بها للملتقى الدولى الحادى عشر الذى تنظمه الجامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية بأدرار أيام 11-12-13 ذو القعدة 1429هـ الموافق 9-10-11 نوفمبر 2008م، والتى تدور حول المحور الثالث (العلاقة بين أهل التصوف وغيرهم).. وبداية أقول:

تعريف التصوف :

هذه الكلمة اصطلح عليها أهل المجاهدة، يقول الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم فى كتابه (أصول الوصول لمعية الرسول): [والذى أستحسنه فى كلمة التصوف أنها مأخوذة من الصفاء، فالصوفى من جاهد نفسه فى ذات الله بتوفيق الله حتى صفا قلبه ووقته وحاله، فصافاه الله تعالى، فسمى صوفياً، وهو فعل ماض مبنى للمجهول بشرى له، وهى كلمة ينشرح صدر الموصوف بها لما دلت عليه، وهو مذهب قديم، ومنهج سابق، وفق الله له المقربين، وقد تجمل بهذا المذهب كثيرون من الصحابة فى عصر رسول الله ρ، وهم أهل الصُّفَّة من أئمة الصحابة كأبى ذر رضى الله عنه، وصهيب، وسلمان، وسعيد بن جزيمة، والعبادلة، وبلال، وأبو رافع مولى رسول الله ρ ورضى الله عنهم أجمعين.

ولولا أن اللفظ مضبوط بالرواية لقلت: أنه صُفَّىْ نسبة إلى أهل الصُّفَّةِ الذين أقبلوا بكليتهم على الله ورسولهρ مجاهدين أنفسهم فى ذات الله.

وصف رجال التصوف :

وهم فى كل عصر وزمان أئمة الهدى، وسرج الدلالة ومصابيح الظلمة، وهم أهل الله الذين فرغت قلوبهم مما سواه، وصفت لطائف قلوبهم، فأشرقت على الملكوت الأعلى، وظفروا بأسرار العلوم، وحقائق الفهوم، وهم المحدثون الذين أخبر رسول الله ρ عنهم، الذين تتلقى قلوبهم عن ربهم، وهم الذين أمرهم رسول الله بأن يستفتوا قلوبهم لصفائها وإن أفتاهم المفتون، ولكنهم قليل، وقد دخل فيهم الدخيل من المتمصوفة، ولكن ماء ولا كصدى، ومرعى ولا كالسعدان، فالمخلصون تسبق أنوارهم أقوالهم، وتهجم أحوالهم على القلوب فتجذبها لعلام الغيوب.

أهل التصوف هم الصفوة :

أما بيان أن أهل العلم بالله وبطريق الآخرة هم الصفوة من بنى آدم بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فنقول: إن أرباب هذا العلم، هم الذين ورثوا علوم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، واقتفوا آثارهم، وسلكوا طريقهم فرفضوا الدنيا، وفرغوا عنها، واجتهدوا فى جهاد أنفسهم، قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} (العنكبوت: 69)، وصبروا على مرارة الطريق ومشاق السير فكابدوا وحشة الطريق، وصبروا على وعثاء السفر حتى وصلوا إلى مقصودهم وظفروا بالقرب من معبودهم، فهم الفارون إلى الله عندما سمعوا أمره بالفرار بقوله تعالى: { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (الذاريات: 50)، وهؤلاء هم عباد الصحابة وزهادهم من أهل الصفة وغيرهم من التابعين وتابعيهم، فمن الصحابة حارثة وحذيفة وسلمان وبلال وأبو بكر وعثمان وعلى وغيرهم، وهم قريب من ألف عارف، زهاد عباد قائمون لله بالعبودية باذلون له حقوق الربوبية، ومن التابعين: على بن الحسن زين العابدين وابنه محمد الباقر، وجعفر الصادق وأويس القرنى والحسن البصرى وغيرهم من كمل الرجال عليهم رضوان الله، ومن أراد أن يطلع على أكثر من ذلك فعليه بالمطولات.

موضوع علم التصوف وأهله[1] :

حد علم الباطن وحقيقته المصطلح عليه بأنه هو علم التصوف: فهو علم يعرف منه أحوال النفس فى الخير والشر، وكيفية تنقيتها من عيوبها وآفاتها، وتطهرها من الصفات المذمومة، والرذائل والنجاسات المعنوية التى ورد الشرع باجتنابها، والاتصاف بالصفات المحمودة وهى الصفات التى طلب الشرع تحصيلها، وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى والفرار إليه.

طبقات أهل التصوف :

أهله ثلاث طبقات، طبقة مريد طالب، ومتوسط سالك، ومنتهى واصل، فالمريد صاحب وقت، والمتوسط صاحب حال، والمنتهى صاحب نفس، وعد الأنفاس من أفضل الأشياء عندهم، فالمريد الطالب متعب فى طلب المراد، والمتوسط السالك مطالب بآداب المنازل، وهو صاحب تلوين، لأنه يترقى من حال إلى حال، وهو فى الزيادة، والمنتهى الواصل محمول قد جاوز المقامات، وهو فى محل التمكين لا تؤثر فيه الأهوال، فمقام المريد المجاهدات، والمكابدات، وتحمل المشاق، وتجرع المرارات، ومجانبة الحظوظ، ومقام المتوسط ركوبه الأهوال فى طلب المراد، ومراعاة الصدق فى الأحوال، واستعمال الأدب فى المقامات، ومقام المنتهى الصحو، وإجابة الحق من حيث دعاه، قد استوى فى حقه الشدة والرخاء، والمنع والعطاء، والعافية والبلاء، قد فنيت حظوظه، باطنه مع الحق وظاهره مع الخلق، وكل ذلك منقول معلوم مشهور من أحوال النبى ρ، وحركاته وسكناته فى ابتداء أمره، ومن أحوال الصحابة والعلماء الحكماء أرباب البصائر واليقين. مثل حارثة وبلال وصهيب وسلمان وغيرهم من أصحاب الصفة، وأصحاب البيعة، والخلفاء، والمهاجرين، والأنصار.

كان النبى ρ قبل نزول الوحى عليه وبعده مختلياً فى غار حراء، ثم صار مع الخلق ولا فرق عنده بين الخلوة والجلوة، كذا أصحاب الصفة، صار جماعة منهم بعد التمكين أمراء، لأنهم تمكنوا من الإيمان بالله والمعرفة والإخلاص له، فلم تؤثر المخالطة بالخلق فيهم، ولا فى أحوالهم، وهذه أحوال المشايخ من بعدهم.

فائدته وثمرته :

هى النجاة فى الآخرة، والفوز برضا الله تعالى، ونيل سعادة الأبد.

موضوعه :

الباطن أعنى القلب من ناحية ما يعرض له من اللمحات، والخواطر، والهواجس، والوساوس، والعلوم، والنيات، والقصود، والعزائم، والاعتقادات، وحديث النفس، وغير ذلك.

مسائله :

الأحكام المتعلقة بهذه الخواطر، والهواجس، والنيات، والقصود، والعزائم، وسائر أحوال النفس.

([1]) راجع كتاب (حياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحبوب) لعماد الدين الأموى بهامش كتاب قوت القلوب لأبى طالب المكى الجزء الأول ص260 وما بعدها، ط. 1985 بمصر.

ظاهر التصوف وباطنه :

والتصوف له ظاهر وباطن، فظاهره: استعمال الأدب مع الخلق بالأخلاق الحسنة معهم، وباطنه: منازلة الأحوال والمقامات مع الحق، فالظاهر علامة الباطن، والباطن حقيقة الظاهر، ألا ترى لقوله ρ لما نظر إلى المصلى وهو يعبث فقال: (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه)[2]. وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) (الحجرات: 3).

جلال هذا العلم :

جلالة هذا العلم وشرفه وعظم قدره وبيان أن أهله هم الصفوة من بنى آدم بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

اعلم: أن علم الباطن هو علم طريق الآخرة، وهو العلم الذى درج عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهو العلم الذى لم يبعث الله الأنبياء إلا لأجله، وقد سماه الله تعالى فى كتابه فقهاً وعلماً وضياءً ونوراً وهدى ورشداً، وهو مستخرج من الكتاب والسنة، ومدلول عليه منهما نصاً وتصريحاً وتلويحاً وكتابة وإشارة وغير ذلك من أصناف الدلالة.

قال الغزالى: علم الباطن هو علم يقين المقربين، وثمرته الفوز برضا الله تعالى ونيل سعادة الأبد، وتزكية النفس وتطهيرها، وتنوير القلب وصفاؤه بحيث يكشف بذلك النور أموراً جليلة، ويشهد أحوالاً عجيبة، ويعاين ما عميت عنه بصيرة غيره من المعرفة الحقيقية بذات الله تعالى، وبصفات الله التامات وبأفعاله وحكمته فى خلق الدنيا والآخرة، والمعرفة بمعنى النبوة والنبى، ومعنى الوحى، ومعنى لفظ الملائكة، والشياطين، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان، وكيفية ظهور الملك للأنبياء، وكيفية الوحى والمعرفة بملكوت السماوات والأرض، وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين، ومعرفة الفرق بين لمة الملك، ولمة الشيطان "اللمة: الأتباع والرفقاء"، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب، ومعرفة معانى المتشابهات ومعنى قوله تعالى: {وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (العنكبوت: 64). ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملك الأعلى، ومرافقة الملائكة والنبيين، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى فى جو السماء، كما ورد ذلك فى صحيح البخارى، إلى غير ذلك مما يكثر شرحه ويطول تفصيله.

وهذه هى العلوم التى عناها نبى الرحمة ρ الذى لا ينطق عن الهوى بقوله: (إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى)[3].أ.هـ.

إمتزاج علم الفقه بعلم التصوف :

وكان اسم الفقه فى الزمن الأول يطلق على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس

([2]) أخرجه الحكيم فى النوادر عن أبى هريرة.

([3]) رواه أبو منصور الديلمى عن أبى هريرة

ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة الذى أشار إليه الحق بقوله سبحانه وتعالى: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[4]. وأشار إليه نبيه ρ بقوله: (إن الله أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[5]. إلى غير ذلك من دقائق علم القلب، وإنما أرباب العلم الظاهر تصرفوا فى هذا اللفظ بالتخصيص والقصر لا بالنقل والتحويل، كما تصرف أهل العرف فى لفظ الدابة ويدلك على هذا قوله تعالى: {لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ}[6].

وما به الإنذار والتخويف هو المتعلق بإصلاح القلب واستقامته، والفقه الذى به تزكية النفس وتطهيرها دون تعريفات السلم والبيع والإجارة والطلاق، فإن ذلك لا يحصل به إنذار وتخويف، ولا ينجى النفس من مهلكاتها، ولا يخلصها من ورطاتها.

قال السادة الأئمة أرباب البصائر، وأهل اليقين: المعرض عن علم طريق الآخرة وما به النجاة والفوز مع إقباله على العلوم الظاهرة والعمل بها أيضاً يعلم ظاهراً من الحياة الدنيا، وهو عن الآخرة من الغافلين.

وعلماء الآخرة يدورون مع الأعمال الظاهرة بتطهير الباطن، وقطع مواد الشر والآفات والأمراض بإفساد منابتها، وقلع مغارسها وهى فى القلب. قال رسول الله ρ: (ألا إن فى الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب)[7].

مدارس الفقه والحديث والتفسير:

نشأت مدارس الحديث فى المدينة والعراق، وتكونت مدارس الفقهاء فى الحجاز ومصر والشام وبغداد، ثم نبتت مدارس لعلم الكلام بقواعده وأصوله ومناهجه، ومدارس لعلوم التفسير بشرائطها وأصولها وفنونها.

وكانت هذه الحركات جميعها مع جلالها حركات علمية فكرية عمادها الفن، وما يهدى إليه الفكر والبحث والجدل والحوار.

مدارس مع عظيم نفعها، فهى أشبه بمدارس القانون أو الطب أو الهندسة، تضع القواعد على المناهج المقررة، بأسلوبها الجاف، ومنطقها الجامد، ولا يعنيها بعد ذلك الإنسان كقلب وروح وحس ووجدان، وعقيدة وعمل وسلوك.

ولهذه الغاية العليا نهض رجل التصوف الإسلامى برسالتهم، مستهدفين القلب والروح والوجدان والسلوك الإنسانى فى طريقه إلى الله، وفى طريقه إلى الحياة.

([4]) سورة السجدة الآية 17.

([5]) رواه الشيخان عن أبى هريرة.

([6]) سورة التوبة الآية 172.

([7]) أخرجه البخارى عن النعمان بن بشير.

قاموا للمحافظة على روح العبادة، وجوهر الإسلام، قاموا ليجعلوا من المثاليات العليا معراجاً ربانياً، ومنهجاً إنسانياً، يصنع الإنسان الكامل، ويصوغ المؤمن القوى العزيز الصالح للبقاء وللحياة ولخلافة الأرض التى أوجده الله عليها، ليكون جديراً به سبحانه، وجديراً بما أسبغ عليه من قوى هائلة سخرت لها ما فى السموات، وما فى الأرضين.

مدارس التصوف:

وكا اجتهد الفقهاء فى الفروع، وكما ابتدع رجال الحديث القواعد للرواة والسند، وكما كوَّن علماء التفسير مناهجهم فى أسباب النزول والرواية، وكما سن علماء الكلام مبادئهم فى البحث عن الذات والصفات والممكن، والأسباب والمسببات، والقضاء والقدر.

اجتهد علماء التصوف وشيوخه، وأقاموا معارفهم وعلومهم فى العبادات والأخلاق، ومناهجهم فى السلوك، وأمراض القلوب وعلل النفوس، ونوازع الخير والشر، وأنوار الذكر والطاعة، ومقومات الشخصية الإسلامية الكاملة.

يقول شيخ التصوف الأكبر الإمام محى الدين بن عربى: (لقد أجمع رجال التصوف جميعاً على أنه لا تحليل ولا تحريم بعد شريعة رسول الله وخاتم النبيين صلوات الله عليه، وإنما هو فهم يعطى فى القرآن لرجال اله كما ثبت من حديث على بن أبى طالب، وفيض من العلم يهبه الله لمن أطاعه فألهمه وجعل له نوراً.

وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة، كذلك يحفظ علماء التصوف آدابها وروحها، وكما أبيح لعلماء الظاهر الاجتهاد فى استنباط الأدلة، واستخراج الحدود والفروع والحكم بالتحليل والتحريم على ما لم يرد فيه نص وترك أمره للاجتهاد والاستنباط، فكذلك للعارفين أن يستنبطوا آداباً وأذواقاً ونهجاً للمريدين وللعابدين).

إن خصوم الصوفية فى اعتراضها على الصوفية خالفت إجماع علماء الإسلام فى ذلك، وها نحن نضع بين أيديهم شهادة الأئمة الأربعة لعلم الفقه لمنهج التصوف ولسلوك الصوفية، وهم تلاميذ مباشرون أو غير مباشرين لإمام الأئمة سيدى جعفر الصادق τ.

1) نقل الفقيه الحنفى الحصكفى صاحب الدر المختار أن أبا على الدقاق رحمه الله تعالى قال: أنا أخذت هذه الطريقة من أبى القاسم النصر آباذى، وقال أبو القاسم: أنا أخذتها من الشبلى، وهو من السرى السقطى، وهو من معروف الكرخى، وهو من داود الطائى، وهو أخذ العلم والطريقة من أبى حنيفة τ، وكل منهم أثنى عليه وأقر بفضله، ثم قال صاحب الدر معلقاً: فيا عجبا لك يا أخى ألم يكن لك أسوة حسنة فى هؤلاء السادات الكبار؟ أكانوا متهمين فى هذا الإقرار والافتخار، وهم أئمة هذه الطريقة وأرباب الشريعة والحقيقة؟ ومن بعدهم فى هذا الأمر فلهم تبع، وكل ما خالف ما اعتمدوه مردود مبتدع، وذلك فى كتاب الدر المختار جـ 1 ص 43 وعليه حاشية ابن عابدين.

2) وقال الإمام مالك: (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق) وذلك فى كتاب (الشفا للقاضى عياض) شرح ملا على القارى جـ 5 ص 408، وذكرها أيضاً فى كتابه (عين العلم وزين الحلم) جـ 1 ص 33، ونقلها كذلك العلامة العدوى على شرح الإمام أبى الحسن فى الفقه المالكى جـ 2 ص 195.

3) وجاء عن الإمام الشافعى قوله: (حبب إلىَّ من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف) وذلك فى كتاب: (كشف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس) للعجلونى ج 1 ص 341.

4) ونقل العلامة محمد السفارينى الحنبلى عن إبراهيم بن عبد الله القلانسى أن الإمام أحمد بن حنبل قال عن الصوفية: (لا أعلم أقواماً أفضل منهم، قيل: إنهم يستمعون ويتواجدون؟ قال: دعوهم يفرحوا مع الله ساعة). وهذا فى كتاب: غذاء الألباب شرح منظومة الآداب جـ 1 ص120.

فهذه أقوال أئمة الفقه الأربعة ψ فى بيان فضل علم التصوف ومنزلة السادة الصوفية فى الإسلام.

بداية فقهية ونهاية صوفية :

واعلم أن الصوفية دخلوا مع الفقهاء والمفسرين والمحدثين والمتكلمين فى علومهم فسمعوا الحديث، ونظروا فى الأحاديث، وقرأوا القرآن، واشتغلوا بتدبره، ونظروا فى أصول الدين، وعلم الفقه، فالبداية فقهية والنهاية صوفية، ومن لم يبلغ من الصوفية مبلغ الفقهاء وأصحاب الحديث، ولم يحط بما أحاطوا به فإنه يرجع فيما وقع له من المسائل إلى العالمين بأحكام أفعال الجوارح الظاهرة، وهم أصحاب العلوم الظاهرة والصوفية يلزمون أنفسهم بالأخذ بالأغلظ والأشق، ثم إنهم خصوا مع ذلك بعلوم عالية، وأحوال شريفة، ومقامات رفيعة، فتكلموا فى علوم المعاملات، وعيوب النفس، وآفات القلب، وشريف المقامات مثل اليقظة والتوبة والزهد والخشية والمراقبة واليقين والشرك الخفى والعوارض، والأذكار وتجريد التوحيد ومنازل التفريد، وغير ذلك فهم حماة الدين وأنصاره وأعوانه، وهم ورثة الأنبياء { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّـهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ} (الزمر: 18). أول التصوف علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة، فالعلم يكشف عن المراد والعمل يعين على المطلوب، والموهبة تبلغ غاية الأمل.

العلاقة وثيقة بين الفقه والتصوف :

فقد نشأ الفقه كأساس من أسس التربية والتوجيه على بينة من محاب الله ومراضيه.. والفقه نور من لدى الرب يقذف فى القلب وليس فى صحف تتلى لذى حجب، وهو بهذا المعنى قوت النفوس المؤمنة لا يستغنى عنه مسلم؛ إذ به يعرف الحلال من الحرام، وهو الدليل إلى الجنة وطالبه هو المعنى باستغفار الكائنات له بل وتواضع الملائكة له رضاً بما يصنع، والفقه كما هو معروف إذ نشأت بالعراق مدرسة الرأى وإمامها أبو حنيفة النعمان (توفى سنة 150هـ)، كما نشأت بالمدينة مدرسة الحديث وشيخها الإمام مالك τ (توفى عام 189هـ). ويشمل الفقه حياة المسلم من مهده إلى لحده، فترى فيه الأحكام المتعلقة بالرضاع

والحضانة والهبة والوصية والميراث والخطبة والزواج والطلاق والعدة والنفقة، كما ترى فيه أحكام العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج، وأحكام الجهاد والأسرى، والمعاملات وما تشمل عليه من بيع وإجارة وسلم ومساقاة وشركة.. الخ.

وحينما ظهرت التآليف فى ذلك.. ظهر أهل الله، أهل الورع واليقين من السادة الصوفية، من مالوا عن الأهواء وانخرطوا فى حب المولى فغابوا بجماله وفنوا بكماله فاتجهوا بالأحكام الفقهية إلى حكمتها وغايتها من تهذيب النفس وطبعها على الكمال والإخلاص والتوحيد، من هؤلاء السادة الحارث ابن أسد المحاسبى فى بغداد فى كتابه الإحياء.

يقول السراج الطوسى فى قوله تعالى: (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) (لقمان: 20): الفقه قائم على الأعضاء الخارجية والتصوف على الأعضاء الباطنية.. النعم الظاهرة هى فعل الطاعات والباطنة ما أنعم به على القلب من الأحوال والمقامات وكلاهما مؤسس على الكتاب والسنة، يقول أحمد بن حنبل يحث على مجالسة الصوفية: إنهم بلغوا فى الإخلاص مقاماً لم نبلغه، وانظر إلى إذعان الشافعى لشيبان الراعى حين طلب الإمام أحمد بن حنبل أن يسأله عمن نسى صلاة لا يدرى أى صلاة هى، وإذعان ابن خليل أيضاً حين قال شيبان: هذا رجل غفل عن الله تعالى فجزاؤه أن يؤدب.

وتذكرون إذعان أحمد بن حنبل لأبى حمزة البغدادى حينما سأله عن القدر الواجب إخراجه فى الزكاة، فكان جوابه: عندنا أو عندكم؟ فقال ابن حنبل: وهل فى المسألة عندنا وعندكم؟ قال: نعم عندكم ربع العشر وعندنا العبد وما ملكت يداه لسيده.

ويسأل الشبلى عن قول الله تعالى: (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) (النور: 30)، قال: أبصار الرؤوس عما حرم لله وأبصار القلوب عما سوى الله.

يقول الكلاباذى فى كتابه (التعرف لمذهب أهل التصوف): إن علوم الصوفية علوم الأحوال، والأحوال هى مواريث الأعمال، ولا يرث الأحوال إلا من صحح الأعمال معرفة علومها وهى علم الأحكام الشرعية.. ثم علم المعرفة وهو خاص بمراقبة الخواطر وتطهير السرائر، ثم وراء ذلك علوم المشاهدات والمكاشفات.